



**Anna Baldinetti, Leila Maziane et Lorella Tosone (Coord.)- *L'image de l'Europe et de l'U.E. au Maghreb. Historique, perceptions, discours*, (Casablanca: La Crois e des chemins, 2022), 266p.**

من المعلوم  ن العلاقات  ورو-مغربية لم تكن وليدة اللحظة، بل ترجع بجذورها التاريخية  لى مراحل سابقة، وهي مراحل نسجت عبر الزمن علاقات اتسمت بالتفاعل والمواجهة والتحالفات والشراكات، بالنظر لعلاقات القرب الجغرافي التي منحت للتاريخ المشترك مظاهر شتى تتعدى  حداث الظرفية نحو  قاعات تلامس البنيات العميقة.

ضمن هذا  فق ي ى الكتاب الصادر سنة 2022 تحت عنوان: صورة  وربا والاتحاد  وروبي في المغرب، *L'image de l'Europe et de l'U.E. au Maghreb Historique, perceptions, discours*، والمتضمن لمجموعة من المقالات الصادرة بالفرنسية، اهتم بتجميعها والتقديم لها كل من  نا بلدينتي، وليلى مزيان، ولوريليا توزوني، ل ماسة اللثام عن تعقيدات العلاقة القائمة بين ضفتي المتوسط، انطلاقا من قضايا ووقائع تحتزن قدرة طرفي المعادلة على تدبير "الجوار الصعب" الذي رسمت معالمه ثنائية التاريخ والجغرافيا. ويقع هذا المجموع في 255 صفحة فضلا عن السيليوغرافيا، وينقسم  لى قسمين:

في القسم  ول من الكتاب المعنون بـ "المنظور التاريخي"، تم  فراد المساحة المطلوبة للبعد التاريخي عبر  عطاء  همية للزمن الذي يسمح بمعرفة السياقات المحددة والموجهة لصورة  وربا في تطورها داخل البلدان المغربية، ويتعلق  مر بصورة اتسمت بالتنوع على صعيد خصوصية السياق الذي حكمها وكذا الفئات التي نسجتها  عطتها مضمونا، دون  غفال تقاطعات المصالح التي شكلت تاريخيا الرهان  ساسي في طرفي المعادلة.

ومن هذا المنطلق، لامست ليلي مزيان صورة  سبانيا من زاوية مجال مخصوص، ويتعلق  مر بالسفراء المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي حقبة تزامنت مع التجاوز الغربي للعالم  سلامي، مع ما صاحب ذلك من ترسبات طالت عمليات تهجير  ندلسيين واتساع مسارات القرصنة البحرية التي حولت ضفاف البحر المتوسط والمحيط  طلسي  لى  فضية لرسم الصورة والصورة المضادة. ومن هذا المنطلق، وقفت الباحثة عند

ثلاث نصوص لثلاث سفراء مغاربة، ويتعلق الأمر بكل من محمد بن عبد الوهاب الغساني (رحلة الوزير في افتكاك الأسير)، وهو النص الذي جرى تدوينه في عهد السلطان المولى إسماعيل، وفي زمن أحمد بن المهدي الغزال (1766-1767) (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، ومحمد بن عثمان المكناسي (الإكسير في افتكاك الأسير).

ما يميز هذه الكتابات هو طابعها المركب، إذ يتعلق الأمر بمعاينة مباشرة، وبمهام خاصة، ولذلك تراوحت مضامين هذه الإنتاجات بين وصف إسبانيا، ولا سيما في المجالات المثيرة للغرابة لدى الزائر المغربي، كما هو الحال مع مظاهر التطور التقني واختلاف المكونات الثقافية والعلاقات الاجتماعية، هذا إلى جانب طرح قضايا الأسرى التي شكلت مواضيع شائكة حقيقية في العلاقات المغربية الإسبانية... ويتعلق الأمر بعناصر يصعب استيعابها خارج دائرة المرجعية التقليدية وبعيدا عن صرح الصور المتراكمة بين طرفي العلاقة (المغرب وإسبانيا).

المساهمة الثانية ضمن المحور التاريخي أكد فيها الباحث إلوي مرتان كوراليس مدى أهمية العلاقات التجارية التي ربطت جنوب البحر المتوسط بإسبانيا (1798-1807)، وهي علاقات وإن لم يوازها حضور منظم وكثيف للتمثيلات القنصلية داخل الأراضي الإسبانية على الأقل في الحالة المغربية، فإنها مع ذلك اتسمت بالسلاسة وبسعي الطرفين إلى حفظ هذه العلاقات التجارية، وهذا على الرغم من المشاكل التي كانت تُثار بإيقاعات مستمرة (التهريب مثلا). وعلى هذا الأساس، اتجهت إسبانيا إلى رسم ملامح قنصلياتها باستخدام أشخاص امتهنوا في الغالب التجارة ولهم دراية بالمغرب ولغاته، بغية تيسير صيغ الحلول المقترحة، وبالتالي الحفاظ على دينامية العلاقات في ظرفية يحتاج فيها كل طرف إلى الاستفادة من الآخر. وهذا التوجه العام هو الذي تحكم كذلك في المنظور المغربي الذي أفضى بدوره إلى إفراز وكلاء من ذوي الخبرة في تدبير العلاقة بين البلدين منذ بداية القرن التاسع عشر، بغية التمكن من تأمين مصالح المغاربة داخل العديد من المدن التجارية الإسبانية (قادس-برشلونة).

وتأكيدا لأهمية هذه الخصوصية على صعيد التاريخ المشترك، حاول عمر لمغيشي الوقوف عند صورة أوروبا عبر منظر المغاربة اليهود خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ويتعلق الأمر بصورة يصعب استيعابها دون ربطها بعمليات المضايقة والطرده التي عانى منها اليهود من قبل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا خاصة في سنة 1492. لكنه على الرغم من هذا الماضي الصعب، فقد سمح سياق القرون اللاحقة من تشكيل تدريجي للدور الوظيفي الخاص باليهود المغاربة في بناء جسور التواصل تجاريا وسياسيا بين المغرب وأوروبا... وتكفي الإشارة في هذا الباب إلى عائلة بلاش وموشي بن عطار، للتأكيد على تحولات السياق التاريخي الذي فرض الاتجاه نحو تمتمين العلاقة عوض القطيعة، وهو ما تجسد أكثر مع احتضان المغاربة اليهود للأوروبيين في الصورة

وغيرها، وما تلا هذا التفاعل من تأسيس مدارس تعليمية يهودية بالمغرب، وغير ذلك من عمليات التجنيس التي مست العديد من الأسر اليهودية المغربية.

وركزت باقي المقالات ضمن القسم التاريخي أساسا على وقائع التاريخ الراهن من خلال العمل على رصد مسارات العلاقات الأوروبية بالدول المغاربية، أو من خلال الوقوف عند التجارب الوجودية ومآلاتها، والتي كانت أحد رهاناتها التمتع داخل فضاء البحر المتوسط. وفي هذا الإطار، وقفت أنا بلديني، وعند مسار التكتل المغربي المنبثق في أصوله من فترة الاستعمار الذي عزز جانب الشعور بالوحدة، هذا الشعور الذي تم تصليبه مع الاستقلال، حيث برزت محاولات مأسسة هذه الوحدة منذ 1958 بمبادرة مغربية، وهذا على الرغم من عدم اكتمال المشروع التحرري لدى باقي الدول. ومع تحقيق مسعى التحرر، واكمال عنصر السيادة لدى الدول المغربية، وقع التركيز على بناء المشروع الاقتصادي بالاعتماد على آليات اللجان وعقد الاتفاقيات المشتركة. لكن محدودية الآلية السياسية، جعل الوحدة المغاربية لا تبرح دائرة التعثر، مما جعل الضفة الجنوبية للمتوسط، تظل حبيسة للاختيارات الضيقة الخاصة بكل دولة، في مقابل سعي الضفة الشمالية الغربية نحو إنجاح جماعي للسوق الأوروبية، وبالتالي تحققت تقوية الجانب التفاوضي على حساب الدول المغاربية التي افتقدت كيانا تفاوضيا مشتركا، وهو ما حاول الفصل فيه كل من نانسي دو ليو، ودانييل باسكينوتشي، من خلال الوقوف عند التجربة التونسية خاصة والمغاربية عامة، واللذان تعكسان الضعف الذي تميز به صوت الجنوب بخصوص مختلف مجالات الشراكة والترافع، بما في ذلك مجال حقوق الإنسان.

وبصفة عامة، شكل القسم الأول من الكتاب مدخلا مؤسسا لتفكيك جوانب الرؤى والخطاب السياسي بين صفتي المتوسط، والذي يتشكل منه أيضا موضوع القسم الثاني، حيث حاولت مختلف المقالات التي حررها، كل من نبيل الضهار ولوريليا توزوني ولورنس ماري أنج تيو، وبياتريس طومي ألونزو، ورياض بنخليفة ومحمد المحساني وسمر خمليشي، مقارنة جملة من القضايا المركبة والشائكة في العلاقات البينية، شملت الجوانب المتعلقة بالهجرة، وبالمجتمع المدني، وبصورة الفاعل الأوربي، وبمسألة الإسلاموفوبيا، إلى غير ذلك...، ويتعلق الأمر بقضايا متداخلة يصعب تفكيكها وفهمها خارج دائرة التاريخ المشترك الذي رسم معالم الذهنيات والأبنية الاجتماعية والثقافية وكذا علاقات الدول.

وختاما يوفر كتاب صورة أوروبا والاتحاد الأوربي في المغرب، إضافة مرجعية ومنهجية، إن على مستوى المعطيات أو المقاربة التي استحضرت عنصر الزمن في فهم تشعبات العلاقات الأورومغاربية.

خالد أو عسو

جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء